المحاضرة 03 : الوظيفة الاجتماعية للغة

تمهيد:

قبل الحديث عن وظائف اللغة فإنه من المهم الإشارة إلى دلالة الوظيفة عند الباحثين في هذا المجال، ودون الدخول في التعريفات اللغوية وغيرها للوظيفة، لأن ما تُعنى به الدراسة هو ما يقصده الباحثون في علم اللغة الاجتماعي بوظائف اللغة، وهي في أوضح معانيها استعمالات اللغة فكلمة وظيفة مرادفة لكلمة استعمال في هذا الموضع عند أصحاب الدراسات اللغوية .

فوظائف اللغة تشمل الحياة بجوانبها كافة، فباللغة ننقل الأفكار والمعلومات والحقائق والعلوم، من عصر إلى عصر، ومن جيل إلى الجيل الذي يليه، ومن مكان جغرافي إلى مكان جغرافي آخر، وباللغة يكون التعليم وتنقل العلوم، وباللغة يكتب الشعر والنتر، وتؤلف الكتب والقصص وغيرها من الآداب، وباللغة ننقل مشاعرنا – من أفراح وأحزان وغيرها – إلى الآخرين، وباللغة نوجه من نريد توجيهه، وباللغة نعبر عما نحتاج إليه، ونعبر عن آرائنا.

ويمكن تصنيف وظائف اللغة إلى صنفين رئيسين:

– الصنف الأول: وظائف مباشرة، وهي التي تحدد من خلال اللغة نفسها، دون ارتباط بأي عامل أجنبي عنها، وهي: التبليغية، والإيعازية، والشعرية أو الجمالية، والتواصلية، والقواعدية.

– الصنف الثاني: الوظائف غير المباشرة ومنها: الوظيفة المعلوماتية، والوظيفة الفكرية، والوظيفة الاجتماعية، والوظيفة النفسية.

ووظائف اللغة كثيرة ومتنوعة ويختلف الباحثون في التعبير عنها، ومنها: أن اللغة وسيلة للتعبير، وهي كذلك وسيلة للتواصل وأيضاً هي وسيلة للتأثير، فاللغة تعبر عن أفكارنا ومشاعرنا، وتوصلها للآخرين، وتؤثر في السامعين

ومن أشهر التصنيفات لوظائف اللغة تصنيف هاليدي وظائف اللغة في ثلاثة أصناف رئيسة هي:

1 – الوظيفة التصويرية: ويقصد بها إشارة اللغة إلى الأشخاص، والأفعال، والأحداث المتخيلة، والحقيقية.

٢– الوظيفة التعاملية.

– الوظيفة النصية وتقوم على دور اللغة في إنتاج النصوص.

ولا يمكن حصر وظائف اللغة الاجتماعية، لأن استعمالات اللغة في المجتمعات كثيرة ومتشعبة ،فمن الباحثين من حاول تتبع وظائف اللغة من منظور اللسانيات الاجتماعية وحددها فيما يلي:

– الوظيفة الرسمية: ويراد بها أن اللغة الرسمية هي اللغة المعتمدة لأداء كافة الأنشطة الممثلة للدولة سياسياً وثقافياً، ومن مظاهر اللغة الرسمية اللغة الدستورية (القانونية) والتي يصفها الدستور بأنها اللغة الرسمية للدولة، واللغة الرسمية

(الإدارية) وهي التي يتم بها التعامل الإداري في إدارات الدولة واللغة الرمزية: وهي التي تستعملها الدولة رمزاً لسيادتها وقوميتها.

– **الوظيفة الإقليمية:** ويراد بها استعمال لغة من اللغات على مستوى إقليم محدد، فهي تؤدي عمل الوظيفة الرسمية في حدود جغرافية محددة، أو على مستوى إقليمي محدد، وليس لهذه اللغة وظيفة قومية.

– **وظيفة الاستعمال اللغوي المتداول على نطاق واسع:** وتقوم هذه الوظيفة على استعمال اللغة للتفاهم عبر الحدود اللغوية بين المجموعات أو الأقليات داخل المجتمع الواحد.

– **وظيفة الاستعمال الدولي** : ويقصد بها استعمال اللغة في التواصل بين الدول، مثل: استعمال اللغة في الأغراض الدبلوماسية، وفي التجارة الدولية وفي السياحة، وغالباً ما تكون هذه اللغة واسعة ومنتشرة وكثيرة الاستعمال.

– **وظيفة استعمال اللغة** في مواقع النفوذ الاجتماعي والتأثير، ويعبر عنه باستعمال اللغة في العاصمة، وبخاصة إذا كانت هذه العاصمة ذات مكانة سياسية واقتصادية متميزة؛ مما يجعل هذه اللغة تنتشر في أطراف الدولة وأقاليمها؛ لما لها من نفوذ قوي.

– **وظيفة الاستعمال الخاص بالمجموعات:** ويراد به استعمال اللغة للتفاهم بين أفراد مجموعة عرقية أو ثقافية واحدة مثل القبيلة وغيرها، وقد ترتقي هذه اللغة بصورة غير رسمية وتكون معياراً رئيساً في الانتساب والعضوية للمجموعة، وكذلك تصبح . عاملاً من عوامل تحديد الهوية.

– **وظيفة التعليم:** ويراد بها استعمال اللغة أداة للتعليم في مؤسسات التعليم الإقليمية والقومية، هذا من جانب ومن جانب آخر ممكن أن تكون اللغة نفسها مقرراً تعليمياً ويحدث هذا عند تعلم اللغة الثانية.

– **وظيفة الكتابة الأدبية** ويراد بها استعمال اللغة في الكتابات الأدبية والأكاديمية.

– **الوظيفة الدينية:** ويقصد بها استعمال اللغة في أداء الفرائض والعبادات، وفي التعليم الديني وتصحيح العقائد وفي الوعظ والإرشاد، وقراءة النصوص الدينية .

ويمكن من خلال النظر فيما ذكره أصحاب الدراسات في علم اللغة الاجتماعي الوقوف على عدد من أهم الوظائف الاجتماعية للغة والتي ستتناولها الدراسة بالوصف والتحليل ومن أهم هذه الوظائف ما يلي:

– الوظيفة التاريخية للغة:

يراد بالتاريخ في هذا الموضع جملة الأحوال والأحداث التي يمر بها الفرد أو المجتمع الإنساني، ويصدق على الفرد وعلى المجتمع، كما يصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية (1)، وأرخ للقوم: كتب تاريخ حياتهم وأجدادهم وحضارتهم (٢)، وتحرص المجتمعات الإنسانية على نقل تاريخها وحضارتها ومنجزاتها وحتى الأحداث التي

مرت عليها من جيل إلى جيل، وأفضل ما تنقل به هذه المنجزات اللغة، بوصفها وسيلة التواصل بين الأفراد في جيل واحد وبين الأفراد من أجيال متعاقبة.

لقد اتضح أن اللغة هي من تنقل تجارب ومعارف الأجيال الماضية للأجيال اللاحقة، وتسمح لهذه التجارب والمعارف بالبقاء حية، كما تسمح لها بالتطور وبالتدخل في إنتاج الواقع الاجتماعي الحالي؛إلا أن وظيفتها التاريخية لا تتلخص في حفظ ماضي الشعوب فقط، بل تعمل أيضا عبر عملية الحفظ هذه على توجيه الفاعلين الاجتماعيين نحو أهداف محددة في الحاضر والمستقبل، كما تساهم في تأسيس منظوراتهم حول العالم.

من هنا تظهر الوظيفة التاريخية المزدوجة للغة، فهي تحفظ الماضي وتوجه به الحاضر من جهة، كما تتيحه لاستعمالات فكرية وسياسية وأيديولوجية متعددة من جهة ثانية. ومن هذا المنطلق أيضا، يمكن أن تعرف الأسباب العميقة التي دفعت القوى الاستعمارية إلى الاهتمام بتاريخ الشعوب التي استعمرتها، ولماذا تدخلت في إعادة إنتاج هذا التاريخ وفق مخططاتها ومصالحها.

للغة إذا وظائف تاريخية معقدة، "ولو لها لما استطاع الإنسان أن يطلع على حضارات سابقيه وعلومهم وثقافاتهم وتاريخهم، ولما استطاع أن يوصل الحاضر بالماضي، أو يستشرف المستقبل، ولما استطاع أن يربط بين المشرق والمغرب والشمال والجنوب[1].وفي هذا المجال يقول الدكتور كمال بشر: "وللغة المكتوبة فضلها الذي لا ينكر في نقل المعلومات من جيل إلى جيل، وكل خبرات الماضي ومعارفه وصنائعه وحرفه وثقافته وفنونه ،وعلومه تصلنا هدية مجانية من السابقين بفضل هذه اللغة. إنها باختصار شديد تجعل التقدم ممكناً والحياة متصلة الحلقات في سلسلة متنامية الرقي والازدهار لصالح الفرد والجماعة على سواء".

إذن تظهر وظيفة اللغة في المحافظة على التاريخ عندما تعمل اللغة على بلورة الخبرات البشرية وتجارب الأمم الإنسانية في كلام مفهوم يمكن أن يستفيد منه الآخرون وبه يمكن تدوين الترات الثقافي والفكري لهذه الأمم، ويُحتفظ به وينقل من جيل إلى جيل.

اللغة والهوية الاجتماعية (الوظيفة الهوياتية):

بالإضافة إلى أن اللغة تشكل مستودع الإنتاجات الروحية للشعوب، الشيء الذي لا يعني إطلاقا أن وظيفتها التاريخية تقف عند حد التخزين وفق ما تقدم شرحه، فهي تمثل "منزل الكينونة" ، وتؤسس الهوية ، كما تعد "رمزا هاما للهوية والانتماء إلى مجموعة معينة وتعمل على تعزيز الشعور بالانتماء إلى الجماعة . صحيح أن الهوية عامة وهوية النحن خاصة لا تحدد بالرموز اللغوية فقط، كما أن "اللغة ليست معادلا تاما لجنس الهوية" ، ذلك أن هناك عناصر متعددة تتدخل في تشكيل هذه الهوية منها ما هو فزيائي، وما هو تاريخي، وما هو ثقافي، وما هو اجتماعي ، ومع هذا فاللغة هي التي تمثل الناطق الرسمي بلسان الهوية". لهذا السبب اعتبر (جون جوزيف

---

[1] التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي :روبرتكوبر، تر:خليفة أبو بكر الأسود، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، طرابلس، ليبيا،2006 ،ص 9.

Joseph John) أن الهوية مسألة لغوية في جذورها ، وقال بأن ظاهرة الهوية في عمومها يمكن أن تفهم باعتبارها ظاهرة لغوية[2].

من هنا، يتبين وجود رابطة داخلية لا تنفصم إطلاقا بين اللغة والهوية الجماعية، فاللغة ليست أداة للتعبير فحسب، ولا وسيلة للتواصل بين الأفراد، ولا شأنا من شؤون العلم والثقافة والتدريس، لكنها شأن من شؤون الهوية والأمن القومي والسيادة الوطنية والاستقرار الاجتماعي والنفسي، حيث اللغة مؤلف رئيس من مؤلفات الهوية في كل بلد، أو وطن، أو أمة. وفي الواقع، إن اللغة لا تساهم فقط في تشكيل الهوية الثقافية والإثنية، بل تعتبر إلى جانب الوعي اللغوي من العوامل الهامة أيضا في ظهور الهوية القومية" كما وضح ذلك (بندكت أندرسن Benedict Anderson) بشكل مفصل في كتابه الجماعات المتخيلة. فالوعي القومي بأروبا وفق تفسير أندرسن لم يتحقق بشكل مفاجئ، بل كان للغات الطباعية الدور الحاسم في إرساء ضروب هذا الوعي القومي"[3].

اللغة والسلطة (الوظيفة السياسية):

إلى جانب الوظائف التي تم ذكرها سابقا تعتبر اللغة أيضا أداة للسلطة ،فقد لا تكون هناك أهمية كبيرة لعلاقة اللغة بالسلطة عامة وبالسلطة السياسية خاصة في المجتمعات القديمة جدا التي لم تعرف إلا عددا قليلا من الكلمات والقواعد اللغوية، لكنها اليوم تأخذ وضعا خاصا جدا يتسم بكثير من الحساسية والتعقيد. فاللغة منذ زمن بعيد، وخاصة في المرحلتين الحديثة والمعاصرة التي نما فيها خطاب حقوق الإنسان، واحتلت فيها الأيديولوجية الصدارة، لم تعد (اللغة) بعيدة عن الاقتصاد والسياسة والصراع والحرب، بل أصبحت تمثل حسب نورمان فيركلف "الوسيط الأول للسيطرة الاجتماعية والسلطة" ، والأكثر من هذا فاللغة أصبحت تشكل "ساحة من ساحات الحرب وأداة من أدواتها[4] ، وهذا ما أشرنا إليه عند حديثنا عن علاقة اللغة بالهوية.

والمتأمل لهذه الوظيفة يرى أن اللغة ترتبط بالسياسة من خلال عدة مظاهر رئيسة، وهذه المظاهر ليست خاصة بمجتمع لغوي دون آخر بل هي مظاهر مشتركة لكنها أيضا لا تختلف في تحققها في مجتمع دون آخر نظراً لاختلاف ظروف المجمعات الإنسانية ومن أبرز مظاهر توظيف اللغة في خدمة السياسة ما يلي:

1/ تعنى اللغة بدراسة المصطلحات والتعبيرات التي تضعها الأنظمة السياسية في البلدان التي تحكمها وتختلف هذه المصطلحات في ألفاظها ودلالاتها من مجتمع إلى آخر، ومن نظام سياسي إلى آخر.

---

[2] اللغة والهوية: قومية– إثنية– دينية :جون جوزيف، تر:عبد النور خراقي،منشورات عالم المعرفة، عدد 342 ،الكويت،2017 ،ص32

[3] الجماعات المتخيلة :تأملات في أصل القومية وانتشارها :بندكت أندرسن،تر:ثائر ديب، منشورات شركة قدمس للنشر والتوزيع ،بيروت،لبنان ،ط2009،1 ،ص78.

[4] اللغة والسلطة: نورمان فيركلف، تر: مُحَمَّد عناني ،منشورات دار الشؤون الثقافة العامة ،بغداد ، العراق،ط1، 1976 ،ص17.

2/ دراسة لغة الانتخابات والحملات الإعلامية الموجهة التي تطلقها الأنظمة السياسية في المجتمعات للتشجيع على انتخاب مرشح محدد أو تبني مسألة سياسية محددة.

3/ دراسة لغة القوانين والأنظمة التي تصدرها الدولة فيما يتعلق بتنظيم شؤون الحياة.

4/ دراسة لغة المراسيم والتوجيهات التي يصدرها رئيس الدولة في الشؤون السياسية داخل الدولة.

5/ دراسة المفردات والتعبيرات التي يستخدمها السياسيون في أوقات الحرب والأزمات وفي أوقات السلم والاستقرار.

6/ الوقوف على التغيرات التي تحدث في دلالات الألفاظ واستعمالاتها وفي الأساليب اللغوية التي تصحب التغيرات السياسية في الدولة.

اللغة بالدين (الوظيفة الدينية):

العلاقة بين اللغة والدين تقوم على عدة أمور رئيسة منها:

- استعمال اللغة عند أداء الطقوس الدينية والفرائض التعبدية ،فالقيام بمثل هذه الأمور يحتاج إلى لغة.
- استعمال اللغة في التعليم الديني بكل صوره التعليم الرسمي والتعليم غير الرسمي.
- استعمال اللغة في الوعظ والإرشاد.
- استعمال اللغة في قراءة النصوص المقدسة.

وقد عنيت الأديان باللغات، فقد جاء في القرآن الكريم (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) ، وفي هذه الآية تنبيه على اختصاص البشر دون غيرهم بالمحافظة على الدين واستمراره، وذلك من خلال نقله من جيل إلى جيل، والوسيلة الرئيسة للمحافظة على الدين واستمراريته هي اللغة)، والعلاقة التي يقيمها أفراد المجتمع مع الدين بصورته العامة تحتاج إلى لغة خاصة تترك أثراً كبيراً في نفوس أفراد المجتمع، ومن خصوصية هذه اللغة يرى بعض الباحثين أن الدين يستخدم لغة فيها شيء من الغموض فهي ليست واضحة مثل لغة التعامل اليومي، وتحتاج إلى نظر وتأمل لفهم معانيها، وقد يستخدم في لغة الدين كلمات من لغات أخرى، ولهذه اللغة مميزاتها الصوتية مثل: تتابع الأصوات، والسجع، ومراعاة الفواصل وتنغيم الكلام؛ بهدف إحداث الأثر المطلوب، ولهذه اللغة كذلك أساليبها الخاصة في استخدام الرمز والمجاز وتعدد الصور.

المجتمع اللغوي في علاقته مع لغة الدين متشدد جداً ومحافظ على لغته الدينية، ولا يسمح بأن يطرأ عليها تغيير؛ لذلك فإن التغيير الذي قد يطرأ على اللغة الدينية طفيف جداً ومحدود، وكذلك فالمجتمعات اللغوية لا تسمح بالمساس غير اللائق بلغتها الدينية، بل قد يؤدي مثل هذا المساس إلى غضب ويحدث أضراراً داخل المجتمع اللغوي، ولغة الدين تجد طريقها بسهولة إلى ألسنة الناس وبعضها يستعمل في اللغة اليومية.

اللغة والفعل الاجتماعي (الوظيفة الأدائية للغة):

إن العلاقة بين اللغة والفكر ليست علاقة خارجية كتلك التي توجد بين الأجسام الجامدة، وإنما هي علاقة داخلية يتم فيها تبادل التأثير، وإن كانت الكفة غالبا ما ترجح لصالح اللغة خاصة في المجتمعات التي يسود فيها التضامن الآلي أكثر من التضامن العضوي. ولما كانت اللغة تنتج الفكر بما هو أداة ومحتوى، والفكر ينتج الفعل (إلا ناذرا)، فاللغة بما هي بنية ومعنى تنتج الأفعال الإنسانية بالمعنى الحقيقي لمفهوم الإنتاج وليس بأي معنى إستعاري.

فوظيفة اللغة إذن لا تنحصر في التواصل فقط، بل تتعدى ذلك إلى إنتاج أفعال الإنسان بما لها من سلطة إكراهية وإغوائية وحجاجية. هذا الأمر، سبق لمالنوفسكي أن أكد عليه في مقال عميق له بعنوان "مشكلة المعنى في اللغات البدائية"، قال فيه إن وظيفة اللغة في الاستعمالات البدائية تكون رابطا في فعالية إنسانية متفق عليها، وتكون قطعة من السلوك الإنساني: إنها ضرب عملي لا أداة تأمل"[5].ويقول مالنوفسكي أيضا في نفس المقال، "لا تستخدم اللغة لتأطير الأفكار والتعبير عنها إلا في استعمالات معينة خاصة جدا في المجتمع المتحضر، وهي أرقى استعمالاتها. ففي النتاج الشعري والأدبي تستعمل اللغة لتجسيد المشاعر والعواطف الإنسانية، وللتعبير عن حالات داخلية معينة وعمليات ذهنية بطريقة مرهفة ومقنعة. وفي النتاجات العلمية والفلسفية تستعمل أنماط من الكلام غاية في التطور والتخصص الضبط الأفكار وتجعلها ملكا مشاعا للشعوب المتحضرة"[6] .

هذه الوظيفة الأدائية للغة، وضحها بشكل أعمق الفيلسوف واللغوي الإنجليزي جون لانشجو أوستين (John Langshaw Austin)في كتابه "نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام"، إذ يقول أوستين "إن النطق بجملة هو إنجاز لفعل أو إنشاء لجزء منه"[7]، وليس مجرد إخبار بحالة أو واقعة ما. فعندما أقول في الكنيسة أو عند من يكتبون العقد" :نعم، أقبل الزواج بهذه الفتاة "فأنا في هذا المقام لا أذيع خبرا ولا أنشره: بل إن لسان حالي يقول "رضيت بالزواج"[8] ، وبالتالي يصبح النطق بجملة "أقبل الزواج بها هو إنجاز لفعل الزواج، خاصة وأن النطق بهذه الجملة تم في شروط اجتماعية وقانونية وثقافية هي الأخرى تفرض بقوتها إنجاز وتحقق مغزى الجملة تحققا فعليا.

---

[5] مشكلة المعنى في اللغات البدائية:برنسلا مالنوفيسكي ، مقال ضمن ملحق كتاب: أيفر أرمسترونع رتشاردز وتشارلز كي أوغدن معنى المعنى: دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية، ترجمة كيان أحمد حازم يحي منشورات دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت – لبنان، بدون تاريخ،ص469.

[6] نفسه:ص475.

[7]نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام، جون لانشجو أوستين، ترجمة عبد القادر قينيني، منشورات دار أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، الدار البيضاء – المغرب،1991.

[8] نفسه:ص17.

الوظيفة التواصلية التعبيرية :

اللغة في أصلها هي عبارة عن نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية يتفاعل بواسطتها أفراد مجموعة اجتماعية ما، ويقيمون علاقات فيما بينهم، ونتجت اللغة عندما شعر الناس داخل المجتمع بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم، فاللغة في الواقع الاجتماعي تنتج من الاحتكاك والتواصل والتفاعل الاجتماعي؛ لذلك فهي واحدة من أقوى العرى التي تربط الأفراد داخل الجماعات ، ومن الباحثين من يرى أن أول وظائف الكلام بالنسبة للطفل هي وظيفة الاتصال بالآخرين مع القدرة على التعبير والاحتفاظ بشخصيته[9].

يتضح لنا من هذا الحديث أن الوظيفة التواصلية والتفاعلية للغة هي واحدة من الوظائف الرئيسة التي تؤديها اللغة، وتقوم بصورة مباشرة على استعمال اللغة من أجل تبادل المشاعر والأفكار بين الفرد والآخرين في المجتمع من حوله.

والتواصل الاجتماعي بصورة عامة يعتمد على الاتصال والتفاعل، وهو عملية معقدة تؤدي إلى إقامة علاقات بين بني الإنسان، وله ثلاثة جوانب رئيسة تتمثل في الجانب التوصيلي: ويقوم على نقل الحقائق والمعلومات والمعارف والنظريات، والجانب التفاعلي ويقوم على مدى التأثير والتأثر، والجانب الإدراكي: ويقوم على الشعور بالمواقف والإحساس بها، ويعد الاتصال صبغة من صبغات تنظيم المجتمعات، ولا يكون هناك عملية اجتماعية بين الأفراد والجماعات دون اتصال بين الأفراد والجماعات.

ومما تقدم ذكره يتضح لنا أن محاولة التواصل والتفاعل أو ما يطلق عليه عند أصحاب الدراسات الاجتماعية بالكفاءة التواصلية من أهم ما يُركز عليه عند تعليم الأطفال اللغة، وتتعلق بصورة رئيسة بالقدرة التواصلية، وبما يحتاج المتكلم أن يعرفه وماذا يحتاج الطفل أن يتعلم؛ ليكون قادراً على استخدام اللغة بصورة مناسبة في المواقف الثقافية والاجتماعية.

---

[9] اللغة في المجتمع: لويس،ص32.